الشيخ محمد جواد مُغنيّة
كما عرفته

الشيخ د. جعفر المهاجر

(١)

ترجع بدايات معرفتي بالشيخ مُغنيّة إلى أواسط سنيّ الطلب في " النجف الأشرف " ، في خمسينيّات القرن الماضي . يومذاك كانت السّاحة الشيعيّة في " لبنان " قد فقدتْ أعرفَ قلمين ، ملآ الدنيا وشغلا الناس بما ألّفا وصنّفا . ونجحا نجاحاً باهراً في أن يُقدّما للقرّاء حضوراً أصيلاً في المُعترَك الفكري الدائرآنذاك . وذلك بوفاة السيد محسن الأمين سنة ١٣٧١ هـ/١٩٥٢م ، ثم السيّد عبد الحسين شرف الدين بعده ببضع سنوات، ولكن السيّد شرف الدين وإن يكن قد عاش بعد سلفه ، فإنه كان قد انقطع عن الكتابة قبل وفاة السيّد الأمين بمدّة. كانت النفوس عطشى تتطلّع إلى مَن يملأ الفراغ الذي نشأ بفقدان ذينك العلميَن .

قبل ذلك ببضع سنوات ، وبالتحديد سنة ١٣٦٦ هـ/١٩٤٧م ، كان عالمٌ عاملي مغمور اسمه الشيخ محمد جواد مُغنيّة قد أصدر كتاباً سمّاه (الوضع الحاضر في جبل عامل) ، أثار ضجّةً عالية . ذلك لأنه تكلّم في الممنوع عند الجميع. تكلّم في الممنوع عند الدولة ، حينما حَمَلَ عليها وحمّلها مسؤوليّة تخلّف وبؤس " جبل عامل " . وتكلّم في الممنوع عند الزعماء السياسين المحليين(البكوات) ، إذ اعتبرسكوتهم على سياسة الدولة ممالأةً لها . وتكلّم في الممنوع عند بعض العلماء، لأنه قال أنهم بتبعيّتهم لأولئك الزعماء كانوا يوافقون ضمناً على مَن وما يُمالئون ، ممّا يُفقدهم الكثيرمن صفتهم كمسؤولين عن رعيّتهم . لقد كان (الوضع الحاضر في جبل عامل) كتاباً ليس لغير إنسانٍ مملوءٍ معرفةً وعفةً وشجاعةً أن يُفكّر فيه ، فضلاً عن أن يكتبه وينشره . ولقد كان الشيخ مُغنيّة حقاً ذلك الرجل بكامل الجدارة والاستحقاق .

هكذا بدأت ألسنة الناس تلهج بذكر عالمِ دين من طرازٍ غير مألوف . وبدأت شخصيّة الشيخ الإشكاليّة تلفت انتباه شريحة واسعة من الناس في وطنه ، خصوصاً بين أوساط المُثقفين . وبهذا يمكن أن نلخّص بداية حضوره بين الناس. وتلك هي إجمالاً الصورة التي كانت في أذهاننا عنه ، نحن طُلاّبَ العلوم الدينيّة في " النجف " آنذاك .

(٢)

كان أوّل لقاءٍ لي بنص الشيخ على صفحات مجلّة (رسالة الإسلام) ، التي كان يُصدرها المجمع العام للتقريب بين المذاهب الإسلاميّة في " القاهرة " بتوجيهٍ ودعمٍ من المرجع الشهير السيّد البروجردي . وكنت يومها أدرس علم أصول الفقه عند أحد أساتذتي جزاه الله عني خير الجزاء . ووصل بنا البحث إلى الأصل المُثبت . وهو فرعٌ من فروع الاستصحاب في الأصول العمليّة . غيرأن بين الأصل وفرعه فرقٌ ضئيل . بيْدَ أن هذا الفرق ، على ضآلته ، يُخرج الأصل المُثبت عن الحُجيّة الشرعيّة . وشرح لنا أستاذنا الباب بما أرضاه. ولكنني خرجتُ من الدرس غير مُرتاح النفس لِمـّا فهمته منه . وشاءت محاسن الصُدَف أن أقع في اليوم نفسه على عددٍ من أعداد (رسالة الإسلام) عند أحد الزملاء ، وفيه مقالة ضافية عن الأصل المُثبت بقلم الشيخ مُغنيّة ، استأذنتُ زميلي في أن أحمله معي إلى غرفتي في المدرسة ، وهناك قرأته بتمعّن . وفي اليوم التالي عرضتُ على أستاذي ما أفهمه عن الموضوع فاستحسن ما سمع . وقال ما معناه ، إنني قد أحسنتُ الإفادة من شرحه بالأمس . فلم أملك نفسي عن أن أقول له ، بعد أن وضعتُ مقالة الشيخ أمامه : ولكنني استفدتُ هذا الشرح من المقالة التي أمامك . ولستُ أنسى كيف بوغت الأستاذ بكلامي لأوّل وهله. وكيف بدأتُ ألوم نفسي على أذني واجهته بما ينسبُ الفضل إلى غيره . غير أن ما ملأني حبوراً بعد قليل ، أنه بعد أن نظرمليّاً في المقالة ، رفع رأسه وعلى وجهه ابتسامة رضى ، وقال ما معناه ، حقاً إن هذا البيان هو أفضل أو من أفضل ما قرأته عن الموضوع .

(٣)

أعتقد أنه من بين الذكريات الشخصيّة الكثيرة التي أحملها عن الشيخ ، فإن الواقعتيَن اللتيَن قدّمتُ بهما تصلحان لمادةٍ يمكن أن نركّب منها صورةٍ وافيةٍ له . كان حُـرّاً حُريّة نسْر يملك الأعالي ، ويأبى أن يسفّ إلى مايسفّ إليه الناس ، خصوصاً حين تقضي مصالحهم بأن يسكتوا عمّا لا ينبغي السكوت عليه ، وبأن ينطقوا استرضاءً لمن رضاهم مغنم . والحقيقة أن جزءاً غير قليلٍ من كتابه (الوضع الحاضر في جبل عامل) هوعن وضع مُصنّفه نفسه ، و هو الذي عانى فقراً مُدقعاً في مُقتبَل حياته في وطنه ، بعد أن عاد إليه من " النجف " . بحيث أنه لم يكن يملك من اللباس إلا الضروري الذي يستر جسده. وبحيث اضطرُ، و هو العالم الجليل ، أن يصرف جُهده إلى الفلاحة والزراعة ، شأن البؤساء من أهل "جبل عامل" . فزرع " شكارة " (أي قطعة أرض صغيرة مُخصّصة للزراعة) في غير قرية .

ليس من العسير على القارئ الحصيف للكتاب ، أن يرى أن التجربة الشخصيّة المُرّة لكاتب (الوضع الحاضر في جبل عامل) كانت بمثابة الزّناد الذي أطلق رصاصة الكتاب . مُوجّهة مباشَرةً إلى مَن كانوا السبب في بلائه هو وفي بلاء وطنه ، دونما مُواربةٍ ، ودونما مُحاباة . هكذا فعندما غدا الشيخ رئيساً لمحكمة الاستئناف الجعفريّة ، جاءه أحد أولئك الزعماء ليُملي عليه بغباء ما يُشبه الأمربإصدار حكمٍ في خصومة تنظر فيها المحكمة ، لصالح أحد المُتخاصميَن . وكأنه لا يشكّ بأن الشيخ سيُبادر فوراً إلى إطاعة أمره . وربما كان يعتقد أنه سيرى في زيارة البيك له في مكتبه شرفاً ما بعده شرف. ولكن الشيخ بعد أن استمع إلى كلامه أفهمه أن مُراجعته غير مقبولة ، وأن حكمه يخضع فقط للأصول القضائيّة الشرعيّة . وقد روى لي شاهد عِيان أن البيك خرج من مكتب الشيخ صارخاً :" الله لا يخلـّيني ياشيخ محمد جواد إذا خلـّيتك رئيس المحكمة " . وبالفعل كان للبيك ما أراد ، وعُزل الشيخ من منصبه . وأُنزلتْ رُتبته إلى مُستشار. ولكنه ظلّ طيلة ما بقي له من العمر ، حتى التقاعد ، مُستنكفاً عن حضور جلسات المحكمة . ومن الغني عن البيان أن هذا الموقف العملي مُكمِلٌ للموقف النظري الذي طرحه في كتابه . وتزاوجٌ كاملٌ بين الفكر والعمل . ودائماً كان المقياس الأخلاقي للفكريكمن في موافقة العمل .

(٤)

إن يكـُن الشيخ محمد جواد في حياته العمليّة نسراً لا يسِفّ ، فقد كان في أعماله كاتباً ومُصنّفاً على العكس تماماً . إن ميزته الأساسيّة فيما صنّف أنه نجح في أن ينزل بأكثر الأفكار صعوبةً وتعقيداً إلى مستوى فهم الإنسان العادي . من المؤكّد أنه لم يكـُن مُبدعاً فيما كتب لا في الأسلوب ولا في المضمون . كان ، بمعنىً من المعاني ، نحلةً فكريّةً ، تُحسِن جنيَ رحيق أزهارِالأفكارِ من مكامنها في الحياة وفي الفكر، ليُقدّمها لمن يرغب شراباً سائغاً فيه شفاءٌ للناس . وهذه من أندر المواهب . أكثرُ الناس لديهم في عقولهم كامن إبداعي . وأقلـّهم مَن يكتشف في نفسه هذا الجانب . وأقلّ منهم مِن يوظـّف ما وهبه الله تعالى فيما ينفع نفسه أو ينفع الناس . أمّا موهبة هضم وتمثيل الأفكارالمُعقـّدة للآخرين وتيسيرها للناس ، فهذه الأندر والأعود . لأنها موهبة مزدوجة : قدرة على استيعاب فكرالآخـَركما هو ، ثم قدرة على تيسيره في قالب لفظي جديد .

أعتقد أن كتابه (التفسيرالكاشف) هو خير أنموذجٍ لِما نقول . ولطالما وقفتُ فيه على معانٍ في تفسير آيات الكتاب وكأنني أقرؤها لأوّل مرّة . ولطالما تساءلتُ ، بعد أن أقرأ فهمَ الشيخ لهذه الآية أو تلك : لماذا لم يكتشف هذا المعنى أحدٌ من قبله ؟ وأسوق على ذلك مثالاً ، هو تفسيره لقوله تعالى : " وأنفقوا في سبيل الله ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلـُكة إن الله يحب المُحسنين" (البقرة / ١٩٥) .

عامّة المُفسّرين يفهمون الآية بأنها تأمربترشيد إنفاق الثروة ، بحيث يكون قواماً بين التبذيروالشـّح. وهو معنى قرآني صحيح. نقرأه في غير مورد . ولكن الشيخ وحده ، فيما أحسب ، فهم منها بحق معنىً آخـَر. هو الأمر بالإنفاق والبذل حين يدعو الداعي ، وعدم حجب المال عن

مواضع الضرورة ، حتى لو أدّى الأمر إلى كبير نفقة ، وإلى حرمان الناس من التمتّع ببعض عوائد أموالهم . وذلك فهمٌ يتناسب تماماً مع سياق ومرمى الآية . حيث وردتْ في سياق الحثّ على الجهاد بمُختلف أشكاله . بدأتْ بالأمربالإنفاق " في سبيل الله" ، أي فيما فيه الصالح العام . وختمتْ بالأمر بالإحسان ، أي بما هو زائدٌ على الحقّ . و هذا معنىً مُختلف . ثم رأيناه في قمّة حضوره مُفسّراً حين أسهب في تطبيق هذا المعنى على إنفاق عوائد النفط إسرافاً وإتلافاً على البذخ والرفاه السطحي . وحجْبه عمّا فيه تنمية مُقدّرات الأمّة ، وما فيه مِنعتها ، وتوفيرمختلف المعونات للمنكوبين من أبنائها وعلى قضاياها . ممّا رأى فيه بحق إلقاءً للنفس في التهلكة ، حسب منطوق الآية . هذا فهمٌ صائب وبديع ، يتناسبُ تماماً مع سياق الآية وخِطابها . كما أنه يتناسب مع نهج أئمة أهل البيت (عليهم السلام) ، الداعي إلى اعتماد قاعدة " الجري " في فهْم وإعمال القرآن . " القرآن يجري كما يجري الليل والنهار" . وإلى عدم وضع نصوصه في قوالب نهائيّة . بل تطبيقها على ما قد يجدّ على الناس من مُشكلاتٍ وقضايا . و (التفسير الكاشف) ، من بعدُ ، غنيٌ جدّاً بمثل هذا . في رأيي أن هذا المثال يختصرأنموذج الشيخ محمد جواد بوصفه كاتباً إنسانيّاً بامتياز ، ومُثقفاً مُنتمياً إلى شعبه ، مسكوناً بهمومه . نظر دائماً إلى وضْع المعرفة وأدواتها موضعها الصحيح في خدمة ثقافةٍ إنسانيّة عضويّة مُنتمية .

من القلّة الذين اكتشفوا تلك الصفة النادرة لدى الشيخ في حياته ، رئيس الجامعة اللبنانيّة آنذاك ، فؤاد افرام البستاني . حيث طلب إليه تدريس مادّة الفلسفة فيها . مع أنه لم يكُن يحمل أي درجةٍ علميّة ، ممّا هو مُعتمَدٌ لدى الجامعات. فاستجاب لطلبه. فكان أوّلَ فقيهٍ من مثله يرقى منبر الجامعة . ودرج على هذا زمناً . ممّا يدلّ على نجاحه في هذا . وأظن أنه وضع كتابه (مذاهب فلسفيّة) في هذا السياق .

(٥)

في أُخريات حياته خطا خطوةً غير مُتوقّعة من مثله . فها هو قد استقرّت شؤونه ، وملك بيتاً لأوّل مرّة في عمره ، يحتوي على مكتبة جيّدة ، وغدا كاتباً يحظى بمكانةٍ ممتازة. ولكننا رأيناه يترك كلّ ذلك فجأةً ويشدّ الرحال إلى " قم" . دونما سبب معروف ممّا يدعو الناس إلى الهجرة من أوطانهم .

في "قم" استُقبِل الاستقبال الذي يليق به . وهُيئت له أسباب إقامةٍ مُريحة ، من منزلٍ وخادمٍ إلى ما هنالك . لكنه رفض كل ذلك قائلاً أنه إنما أتى ليعيش كما وأنه طالب علم ، مُنصرفاً إلى البحث والتدريس . وكان له ما أراد . فنزل في مدرسةٍ من مدارسها ، يخدم نفسه بنفسه . وأمضى سنوات من حياته فيها على هذا النحو ، وصفها بعد عوده منها ، في اتصالٍ هاتفي مع مُحدّثكم ، بأنها كانت أسعد أيام عمره . فكأنه ، وهو الذي قاسى الفقر ألواناً في فتوّته وشبابه ، ظلّ يحنّ إلى براءة الفقر، فاختارعيشة الفقراء شيخاً . ووجد فيما اختاره سعادة ، أظن أنه افتقدها في مُضطرَب حياته الصاخب في " بيروت " .

(٦)

هذه صورة، كأنها قد التُقطِتْ من بعيد ، فضاعت فيها التفاصيل ، لعبدٍ صالحٍ وعالمٍ عامل . تعلّمتُ منه الكثير في المواطن التي تقاطعتْ فيها حياتينا . بمقدار ما يمكن أن تتقاطع حياة الشاب العشرينيّ مع حياة الشيخ الستينيّ . وتعلّمتُ منه حتى وأنا استعيدُ في الذهن ذكرياتي معه ، تهيئةً لكتابة هذه المقالة عنه. كان خشناً في ذات الله . وكان خشناً في ذات الناس . وكان خشناً في ذات نفسه . أعطى دون حساب . وأخذ بحساب عسير. دافع بشراسة عن حقوق الناس . وفي هذا السبيل خسرالكثيرممّا يتنافس فيه المتنافسون . وغمر كلّ ما كتبه بروحٍ إنسانيّةٍ عذبةٍ في الشكل وفي المضمون .

أرجو أن أكون قد وفيتُ بما وعدتُ به في عنوان مقالتي . فقدّمتُ صورةً وافيةً بحقّ عالمٍ عاملٍ مُتميّز . لم أتعمّد فيها الإطناب ، بل ضربتُ فيها صفحاً عن كثيرٍ ممّا أعرفه عنه . كما أرجو أن لا أكون قد أوجزتُ فيها الإيجاز المُخلّ . والحمدُ لله .